الباب التاسع

طراز العصر المملوكى (١٢٥٠ – ١٥١٧ م)

١ – المماليك البحرية (٦٤٨ – ٧٩٢ هـ) (١٢٥٠ – ١٣٩٠ م)
٢ – المماليك البرجية (٧٨٤ – ٩٢٣ هـ) (١٣٨٢ – ١٥١٧ م)

فى الوقت الذى تمكن فيه المغول من بسط نفوذهم على الجزء الشرقى من العالم الإسلامى (العراق وإيران) ، نجد أن العالم الإسلامى الغربى (مصر وسوريا) كان تحت سيطرة عنصر تركى عرف باسم المماليك ؛ ويرجع أصل المماليك إلى قبائل التركمان الرحل التى استوطنت بلاد القوقاز وآسيا الصغرى وتركستان وبلاد ما وراء النهرين . وكانوا فى أول عهدهم أرقاء يشتريهم الحكام المسلمون فى أنحاء العالم الإسلامى من أسواق آسيا ، ثم يقومون بتربيتهم تربية عسكرية ليكونوا حرسًا خاصًّا . وكان هذا النظام متبعاً منذ العصر العباسى ، كما قام الأيوبيون فى فترة حكمهم لمصر وسوريا بشراء أعداد كبيرة منهم للاستعانة بهم فى محاربة الصليبيين . وقد تزايد عددهم فى أواخر عهد الدولة الأيوبية فى فترة حكم الملك « الصالح نجم الدين أيوب » – آخر سلاطين الدولة الأيوبية ٦٣٨ – ٦٤٧هـ (١٢٤٠ – ١٢٤٩ م) فشيد قلعة لسكناهم فى الروضة ومن ذلك اكتسبوا اسم « المماليك البحرية » .

استفحل أمر المماليك بعد أن تولوا مناصب قيادية فى الدولة الأيوبية ، واشتد نفوذهم وسطوتهم فى عهد السلطان « الصالح أيوب » ، وتمكنوا من انتزاع السلطة لأنفسهم بعد أن تظاهروا بمساعدة زوجته شجرة الدر على تولى الحكم لفترة بسيطة ، حيث لم يتوانوا عن قتلها حينما حانت لهم الفرصة لذلك ، وأسسوا دولة المماليك البحرية فى عام ٦٤٧ هـ ١٢٥٠ م . ولكنهم كانوا دائمى التنازع فيما بينهم على تولى السلطة مما نتج عنه تناوبهم على حكم قصير سريع لمصر . وبالرغم من هذا التشاحن الداخلى فقد اشتهرت مصر فى عهدهم بفترة انتصارات حربية رائعة على الصليبيين .

كما أنقذت مقاومتهم الباسلة للمغول وهزيمتهم لهم فى موقعة عين جالوت ، فى عام ٦٥٨هـ — ١٢٨٠ [١] ، الأراضى المصرية من تدمير كان يمكن أن يصيبها من هؤلاء الغزاة الذين بدءوا فى الزحف من العراق غربًا إلى بلاد الشام ، وكان هذا الانتصار تحت قيادة الأمير بيبرس البندقدارى .

استمد السلطان « بيبرس » من هذه الانتصارات هيبة وقوة فى فترة حكمه لمصر وسوريا التى استغرقت المدة من عام (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ) (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) ولقد وطد دعائم الحكم المملوكى فى مصر بخلافة عباسية صورية مركزها القاهرة ، ولقد توصل إلى ذلك بتشجيعه لأحد الأمراء العباسيين على الإقامة فى مصر . بعد أن تمكن من الفرار من بطش المغول فى بغداد ، وبذلك صارت مصر مرة ثانية مركزاً للخلافة الإسلامية بعد أن دمرت بغداد ، وكان لذلك أثر كبير فى الحياة الدينية والثقافية فى مصر خصوصًا بعد أن دب الضعف فى الحكم العربى الموجود فى أسبانيا والمغرب .

انتهى حكم دولة المماليك البحرية لمصر وسوريا فى عام ٧٨٤ هـ — ١٣٩٠ م على يد طائفة أخرى من المماليك الشراكسة الذين يرجع نسبهم إلى بلاد الشركس وجورجيا . وكان عددهم قد كثر فى عهد السلطان المملوكى « قلاوون » ٦٧٨ — ٦٨٩ هـ (١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) حيث قام بشراء أعداد كثيرة منهم أسكنها فى أبراج القلعة مما أكسبهم اسم المماليك البرجية . إلا أنهم تمكنوا بعد أن قويت شوكتهم من الإطاحة بحكم دولة المماليك البحرية ، وكونوا دولة المماليك البرجية تحت زعامة السلطان برقوق واستمروا فى حكم مصر وأجزاء من سوريا حتى الغزو العثمانى لمصر فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى .

كانت التقاليد الثقافية والنظم السياسية فى فترة الحكم المملوكى استمراراً لما كان متبعًا فى العصر الأيوبى بفارق واحد ، وهو أن مصر فى العهد المملوكى صارت مقراً للخلافة العباسية ، ولقد أدى ذلك إلى ازدهار الحياة الثقافية والنهضة الفنية بها بصفتها أهم مركز فى العالم الإسلامى .

---

(١) تقع عين جالوت بين بيسان ونابلس فى فلسطين — سعيد عاشور — " مصر فى عهد دولة المماليك البحرية " ص ٣١ .

وللفترة المملوكية أهمية خاصة فى محيط تطور الفن الإسلامى فى الجزء الغربى من العالم الإسلامى، حيث ظهرت فى مصر وسوريا عناصر من الفنون التركية التى أدخلها المماليك ، ويعد ذلك خطوة مهمة ترتب عليها انقلابات فنية جوهرية فى الفن الإسلامى الموجود فى هذه المنطقة . ولقد أخذ الفنان فى مصر من هذه العناصر التركية بعض الأساليب الفنية ومزجها بتقاليد فاطمية محلية ، وانبثق من هذا أسلوب فنى مملوكى جديد . كما ظهرت أيضاً بعض العناصر المغولية المعاصرة فى الفن المملوكى .

العمارة :

تعد فترة حكم دولة المماليك لمصر العصر الذهبى لفن المعمار الإسلامى، وذلك لاهتمام سلاطينهم البحريين والبرجيين بتشييد المساجد والمدارس والأضرحة التى أكثروا من تشييدها . ومن أهم مشيدات سلاطين المماليك البحرية ، جامع « الظاهر بيبرس » وجامع ومدرسة السلطان « قلاوون » وجامع ومدرسة « الناصر محمد » بالقلعة وجامع ومدرسة السلطان « حسن » . ومن عمائر الحكام الشراكسة البرجيين مسجد ومدرسة «قنصوة الغورى» ، ومدرسة «الظاهر برقوق» . ومن أشهر المماليك الشراكسة الذين اهتموا بإقامة العمائر الدينية السلطان «قايتباى» ، حيث قام بتشييد عدد كبير من المساجد ، كما جدد الكثير من المبانى الدينية التى أقيمت من قبل ، ومن أهمها ضريح « الإمام الشافعى» الذى تنسب أجمل زخارفه المنقوشة إلى العصر المملوكى . كذلك أقام المماليك قصوراً لهم متعددة الطوابق ، واهتموا بإقامة قناطر المياه ، كما اعتنوا بترميم المنشآت العسكرية . وتتميز العمائر المملوكية فى مصر وسوريا بضخامتها .

عمارة المساجد :

نشطت حركة العمارة فى مصر فى عهد السلطان « الظاهر بيبرس » . وتأخذ العمائر الدينية منذ تلك الفترة فى الارتفاع ، ويظهر ذلك فى جدران جامع « الظاهر » الذى شيد فى الفترة ٦٦٥ – ٦٦٨ هـ (١٢٦٦ – ١٢٦٩ م) . ويتضح من دراسة هذا الجامع ،أنه بالرغم من ظهور عناصر معمارية أجنبية به ، إلا أن تخطيطه لم يخرج

عن التصميم القديم الذى عرف فى جامعى ابن طولون العباسى ، والحاكم الفاطمى ؛ فهو يتكون من صحن تحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة . كما أن بوابته البارزة عن الواجهة أسلوب معمارى وجد من قبل فى جامع الحاكم . ويبدو التأثير الأجنبى فى هذا الجامع ، فى الجزء المربع الذى يتقدم المحراب ، حيث تغطيه قبة كبيرة متسعة تشغل ثلاث بلاطات مربعة من رواق القبلة . وهذا النوع من القباب كان معروفًا فى تركيا فى العصر السلجوقى . كما وجد فى غرب تركستان بإيران فى العصر السلجوقى أضرحة ذات قباب متشابهة . وربما انتقل هذا الأسلوب إلى مصر عن طريق سوريا التى كانت تحت حكم أتابكة السلاجقة .

المدارس والأضرحة :

انتشر فى عهد المماليك الاهتمام بتشييد المدارس التى يُلحق بها ضريح مؤسسها ، وربما انتقلت فكرة المدارس إلى مصر من سوريا منذ فترة حكم الأيوبيين . فشيد « الظاهر بيبرس » مدارس لتعليم الدين ، كما شيد السلطان « قلاوون » مبنى به مدرسة وضريح ومارستان فى الفترة ٦٨٣ — ٦٨٤هـ (١٢٨٤ — ١٢٨٥ م) (ش ٢١٥). وتشترك مبانى المدرسة والضريح فى واجهة واحدة ، إلا أن مبانى المدرسة تبرز قليلا عن مبنى الضريح ، ويفصل بينهما مدخل الجامع الذى يليه ممر طويل يؤدى إلى مدخلى الضريح والمدرسة اللذين يقفان بمواجهة بعضهما . ويحيط بفناء المدرسة المربع أربعة إيوانات أكبرها الإيوان الذى يقع بالواجهة ، ويظهر بها صفان من العقود المحمولة على أعمدة . كما يوجد بالمدرسة حجرة بها محراب تستخدم للصلاة .

ويتوسط هذا الضريح قاعدة مثمنة تعلوها رقبة مثمنة تحمل القبة . وتتكون هذه القاعدة من أربعة أعمدة يرتبط بعضها ببعض بواسطة عقود مدببة . ويذكرنا هذا التصميم بمسجد قبة الصخرة الأموى . ويتميز محراب الضريح عن محراب المدرسة بفخامته وزخارفه . ويعد من أفخم المحاريب الموجودة فى مصر حيث تظهر به زخارف محارية مذهبة وبلاطات من الرخام والصدف الدقيق .

ومن أروع العمائر الدينية التى شيدت فى القرن الرابع عشر الميلادى ، مدرسة « السلطان حسن » وضريحه الذى استغرق بناؤه الفترة من ٧٥٥ — ٧٦٤هـ

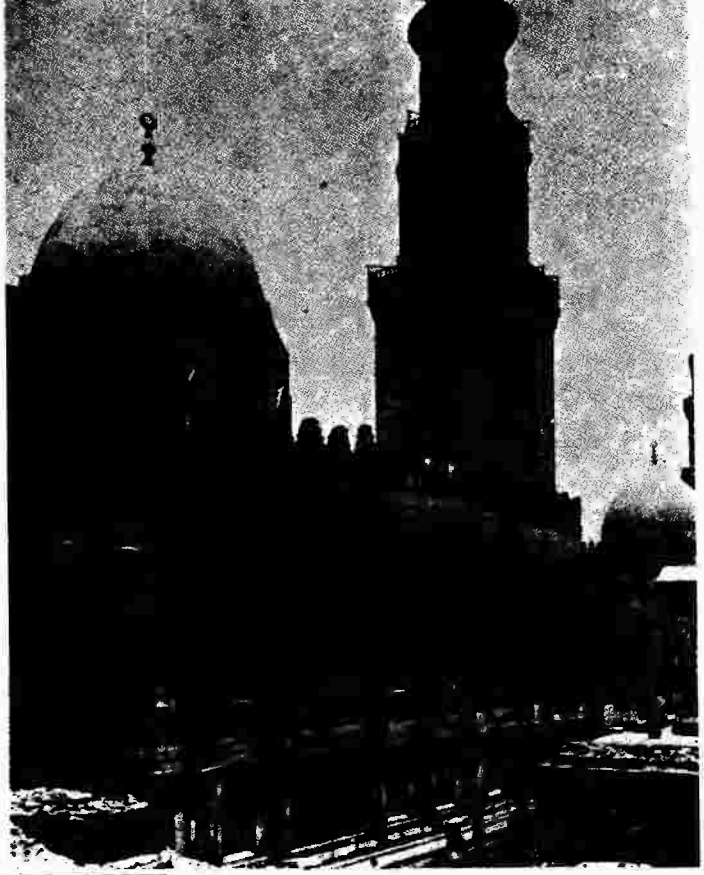

(شكل ٢١٥)
واجهة مدرسة قلاوون ، ٦٨٣ هـ – ٦٨٤هـ – ١٢٨٥ م، القاهرة، العصر المملوكى .

(شكل ٢١٦)
مدخل جامع السلطان حسن، ٧٥٥هـ- ٧٦٤ هـ ، ١٣٥٤ م – ١٣٦٢ م ، القاهرة العصر المملوكى .

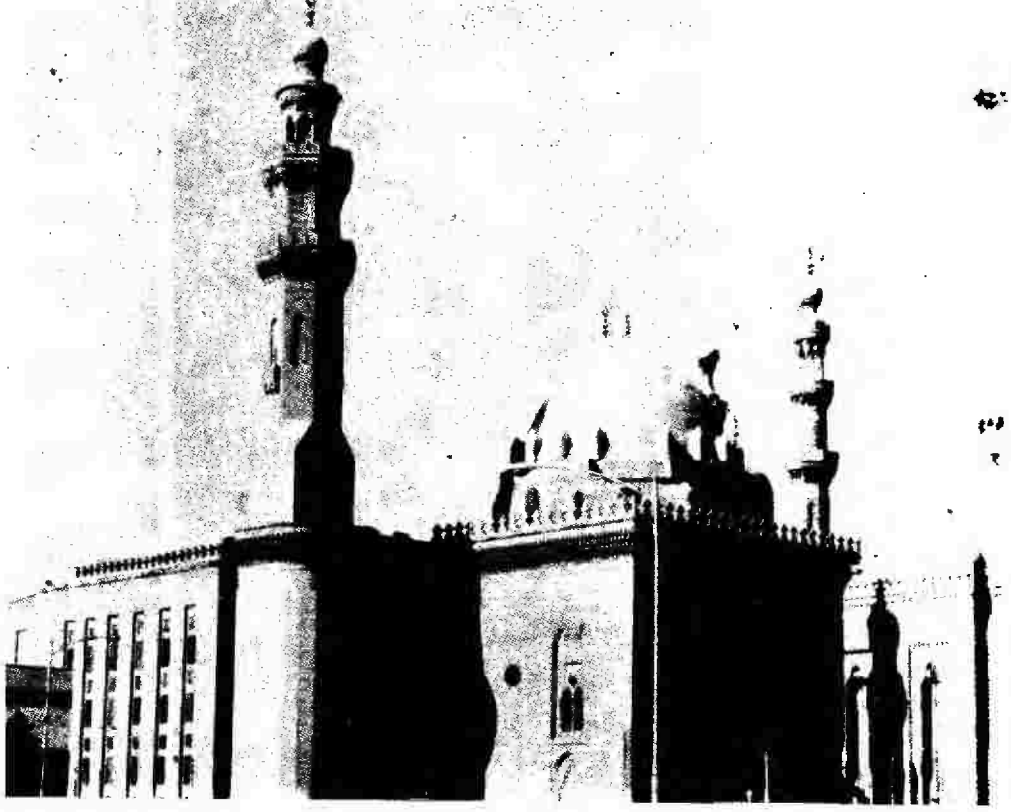

(شكل ٢١٧)

مدرسة وضريح وجامع السلطان حسن من الخارج ، القاهرة ، العصر المملوكى .

(شكل ٢١٨)

الإيوان الشرقى بمدرسة وضريح السلطان حسن ويظهر به المحراب الرخامى والمنبر ، القاهرة ، العصر المملوكى .

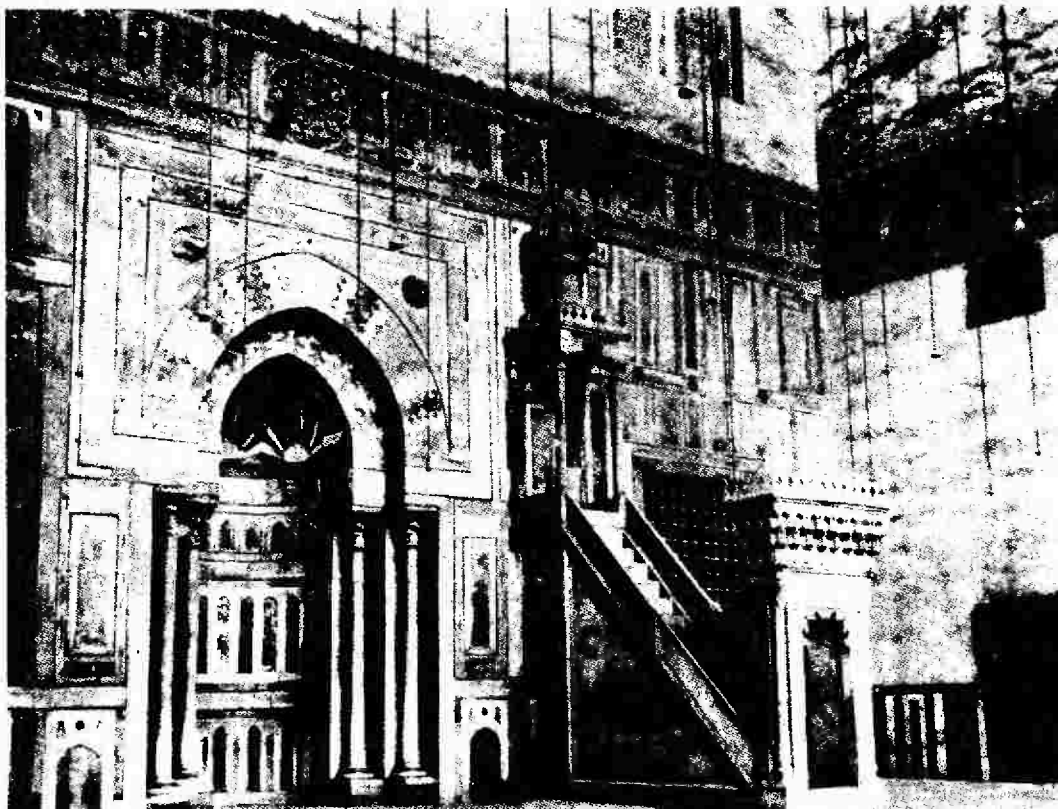

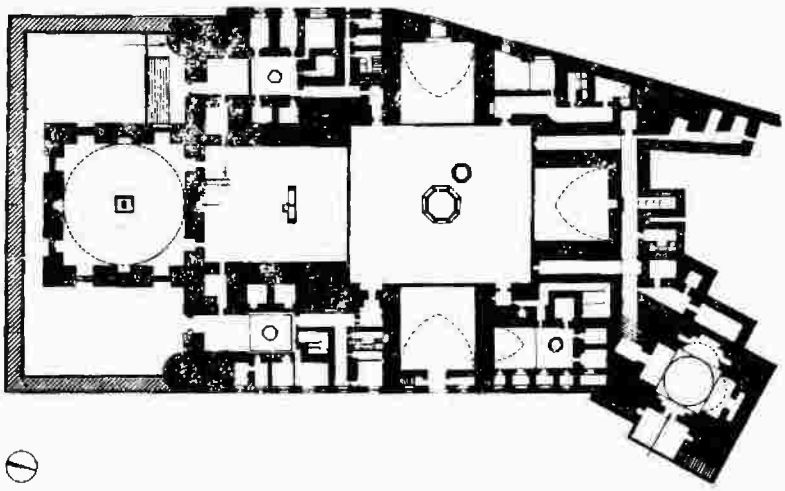

م — تصميم جامع السلطان حسن بالقاهرة

(١٣٥٤ — ١٣٦٢م) ويعتمد تصميم هذا الجامع على شكل الصليب (تصميم م) . ويقع صحن الجامع المربع فى مركز التعامد ، وتغطى أرضيته بلاطات من الرخام المتعدد الألوان . وتحيط به من الجهات الأربع مبان تتوسطها إيوانات خصصت لدراسة المذهب السنى ، أكبرها الإيوان الذى توجد به القبلة ، وتحيط بكل إيوان غرف تستخدم لسكن الطلبة ، ويقع الضريح خلف الإيوان الكبير على امتداد أحد أذرع الصليب ويتكون من حجرة مغطاة بقبة كبيرة ، وتحمل القبة أسطوانة بها ستة صفوف من القرفصات . ويتميز مبنى « السلطان حسن » بمدخل فخم عال يبلغ ارتفاعه ٣٧,٨٠ متراً يقع فى الجهة البحرية فى زاوية واجهتين من واجهاته الأربع (ش ٢١٦) ، إلا أن الداخل إلى هذا المبنى لايشعر بوجود هذا الانحراف . ويؤدى المدخل إلى مدرسة صغيرة مستديرة فى زاوية المبنى ، وتتكون من ثلاثة إيوانات وصحن تعلوه قبة وتوجد بواجهة المبنى الخارجية صفوف من الفجوات عمودية ضيقة غير عميقة بارتفاع الواجهة تقريباً (ش ٢١٧) ، وتظهر بهذه الفجوات نوافذ موضوعة بعضها فوق بعض . وتعطى هذه الخطوط الرأسية المتكررة تأثيراً إيقاعياً جميلا على كتلة المبنى المكعبة ، كما تجعل الجدران تبدو أكثر علواً من الحقيقة .

ويزخرف بوابة المدخل من أعلى حنية كبيرة عالية تنتهى بأشكال المقرنصات التى تذكرنا بمداخل المبانى السلجوقية فى قونية . وتزين جدران المدخل الداخلية زخارف هندسية منقوشة على الحجر ، كما يوجد بجدران القاعة التى تلى المدخل عدد من الحنايا الصغيرة . وتضفى هذه البوابة الفخمة بزخارفها الحجرية البسيطة تأثيراً جميلا على المدخل ، وإليها يرجع الفضل فى اعتبار هذا المسجد من روائع العمارة الإسلامية فى مصر . ويغطى مصراعى الباب الخشبى الموجود ببوابة المدخل شرائح معدنية من النحاس المنقوش بزخارف هندسة . ويلتف حول جدران أبواب المحراب من الداخل إفريز من الجص مزخرف بنقوش كتابية بالخط الكوفى (ش ٢١٨) . ويقع بأسفل هذا الإفريز فى الإيوان الشرقى محراب تكسوه ألواح من الرخام الملون ، ويرجد بجواره منبر رخامى ، ويكتنف المحراب بابان يؤديان إلى غرفة الضريح . ويلاحظ فى هذا الجامع التغيير الذى طرأ على العمارة المملوكية حيث ، اندمجت المآذن فى واجهة المبنى . فتظهر بالجهة الشرقية مئذنتان فوق كورنيش المبنى .

ومن أشهر مشيدات المماليك البرجية فى القرن التاسع الهجرى — الخامس عشر الميلادى ، مجموعة مبانى السلطان « قايتباى » الشركسى (٨٧٧ — ٨٧٩ هـ) (١٤٧٢ — ١٤٧٤ م) التى تتكون من مدرسة وضريح ومسجد وسبيل (ش ٢١٩) . وتشتمل مبانى المدرسة على صحن به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة ، ويلحق بهذه الإيوانات غرف لسكن الطلاب . ويتصل الضريح بالمدرسة من جهة إيوان القبلة ويبرز قليلا عن الواجهة . ويتكون من حجرة مغطاة بقبة محمولة على صفوف المقرنصات . ويوجد بالمدخل عقد على هيئة ثلاثة فصوص . ويقع السبيل على يسار المدخل ويعلوه الكتاب . وتعد المئذنة التى توجد على يمين المدخل من أجمل المآذن المملوكية . وتزخرف الجدران من الداخل والخارج كسوة من البلاطات الحجرية الملونة الجميلة .

وتتميز العمائر الدينية المملوكية بضخامة المداخل والقباب . ويزداد ارتفاع القبة فى عهد المماليك البرجية ، وكان الغرض من الارتفاع بها هو إضفاء المزيد من الجلال والهيبة على المبنى الدينى . وأخذت القبة أشكالا عديدة فى ذلك العصر ، أكثرها انتشاراً شكل الخوذة (ش ٢٢٠) وأحسن مجموعة لهذه القباب توجد فى

(شكل ٢١٩)
مدرسة وضريح ومسجد قايتباى ،
القاهرة ، ٨٧٧ هـ – ٨٧٩ هـ ،
١٤٧٢ م – ٧٤ م ، العصر
المملوكى .

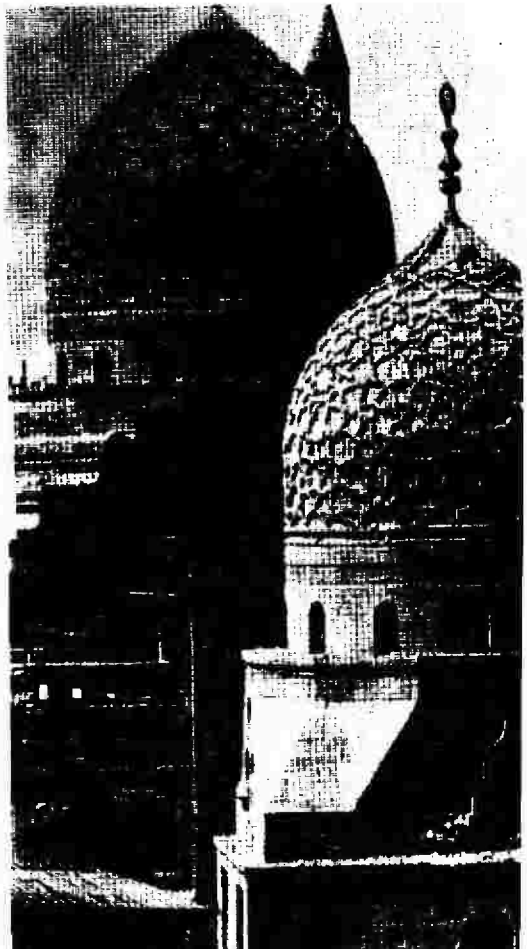

(شكل ٢٢٠)
قبة جانى بك وخلفها قبة برسباى
٨٣٥ هـ – ١٤٣٢ م .

(شكل ٢٢١)
دار بشتاق بالنحاسين ، القاهرة ، القرن ٨ هـ – ١٤ م ، العصر المملوكى

(شكل ٢٢٢)
مقرنصات قبة ضريح سنقر السعدى ، القاهرة ، العصر المملوكى .

(شكل ٢٢٣)
زخارف جصية تغطى جدار جامع الظاهر بيبرس ، القاهرة ، القرن ٧ هـ – ١٣ م ، العصر المملوكى .

منطقة المدافن الموجودة شرق القاهرة التى عرفت خطأ باسم مقابر الخلفاء . وتشتمل هذه المجموعة من المبانى على أضرحة ملحق بها مساجد أقيمت للسلاطين المماليك وكبار رجال الدولة . ويظهر فى زخارف قبابها التنوع والتطور الذى مرت به الزخارف المملوكية فى العصرين البحرى والبرجى .

وتدل الآثار التى عثر عليها فى سوريا من العصر المملوكى أن طراز العمائر الدينية كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بنماذج القاهرة [١] .

عمارة القصور :

شيدت قصور المماليك من طابقين أو أكثر وكانت الطبقة العليا تخصص عادة للحريم ، أما حجرة الاستقبال فتقع فى ركن من الفناء الداخلى [٢] . ولم يبق من قصور العصر المملوكى إلا القليل النادر ، ومن ذلك دار بشناق بالنحاسين (ش ٢٢١) وقصر قايتباى . وكانت المنازل فى العهد المملوكى تزين واجهتها بحشوات من الخشب المخروط تغطى الفتحات بحيث لا يحجب الشارع عن مَن بالمنزل . كما تسمح بنفاذ الهواء والضوء للداخل . ومن المنازل القائمة التى ترجع إلى القرن السابع عشر الميلادى ، الكريتلية وجمال الدين أبو الذهب والسحيمى .

الزخارف المعمارية :

١ — النحت على الحجر والجص :

شاع فى عصر المماليك أسلوب زخرفة أسطح الجدران بزخارف المقرنصات الحجرية . ويوجد هذا النوع من الزخارف غالبًا فى رقبة القبة من الداخل (ش ٢٢٢) وفى الجزء العلوى من المداخل ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك مدخل مدرسة « السلطان حسن » . كذلك انتشرت طريقة زخرفة الجدران بأشرطة الجص المنقوشة بعناصر كتابية فوق أرضية من الزخارف النباتية . ولقد استخدمت هذه الزخارف الحجرية والجصية منذ أوائل عصر المماليك البحرية . ويتضح ذلك فى إطار يعلو نافذة فى مسجد « الظاهر بيبرس » الأول (شكل ٢٢٣) يظهر به

---

(١) حسن عبدالوهاب — التأثيرات المعمارية بين آثار سوريا ومصر ص ٩٦ — ص ١٠٥ .

(٢) انظر ص ١٥٣ L'Art Arabe Prisse D'Avennes

زخارف نباتية وهندسية ، ونلاحظ أن الزخارف النباتية منقوشة على مستويين . وتظهر أحسن النماذج الجصية المملوكية فى نوافذ الجص المفرغ الموجودة بالجامع ، والمزخرفة بأشكال هندسية عشقت بالزجاج الملون . ويحيط بهذه النوافذ إطار مزخرف بعناصر مورقة وكتابات كوفية . ويكثر هذا النوع من الزخارف فى مسجد « قلاوون » وابنه « الناصر محمد » ، كما تظهر هذه التفريعات النباتية المنقوشة على عدة مستويات فى زخارف محراب مدرسة الناصر .

كذلك تمكن الفنان من النقش على الأسطح الحجرية بمهارة كبيرة ، ومن أحسن الأمثلة على ذلك حاجز رخامى مزخرف بنقوش مفرغة لوحدات نباتية وجد بمدرسة « سلار وسنجر الجاولى » (٧٠٢ هـ — ١٣٠٣ م) (ش ٢٢٤) . ولقد استمر أسلوب زخرفة الأسطح الحجرية بالنقش عليها فى عصر المماليك الشراكسة ، وأحسن نموذج لذلك قباب أضرحة المماليك ، ويغلب على هذه الزخارف المنقوشة ، الوحدات النجمية التى اشتهر بها العصر المملوكى . ولقد انتشر فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى استخدام العناصر النباتية فى زخرفة القباب .

وبالرغم من أن زخارف عمائر المماليك الدينية نباتية وهندسية وخطية ، إلا أنه وجد فى مخلفاتهم نموذج للوحدات الحية حيث عثر على قطعة من الرخام منقوشة نقشًا شديد البروز لشكل أسد من الناحية الجانبية فى وضع متحرك . ويرجح العلماء أنها كانت جزءًا من ألواح جدار قصر السلطان « الظاهر بيبرس » لما عرف عن هذا السلطان من اتخاذه الأسد شعارًا [١] .

لم يظهر فى عصر المماليك أسلوب زخرفة السطح بكسوة من البلاطات والفسيفساء الخزفية التى كانت مستخدمة فى عصر السلاجقة فى إيران ، لكنهم استخدموا بدلا من ذلك بلاطات الرخام المعشق بوحدات هندسية مختلفة الألوان . وبذلك تمكنوا من الحصول على تأثير زخرفى جميل . ومن أجمل الأمثلة على ذلك ما وجد فى محاريبهم ، مثال ذلك محاريب السلطان حسن ومسجدى البردينى وقنصوه الغورى (ش ٢٢٥) . كما استخدم هذا الأسلوب فى كسوة الأرضيات . واستخدموا ألوان الأحجار المختلفة الأبيض والأصفر ، أو الأبيض والأحمر أو الأسود فى

---

(١) كريزويل ، " العمارة الإسلامية فى مصر " المجلد الثانى ، ص ١٥٠ — ١٥٤ شكل ٨٧ . Prisse D'Avennes ما قبله ص ٦٥

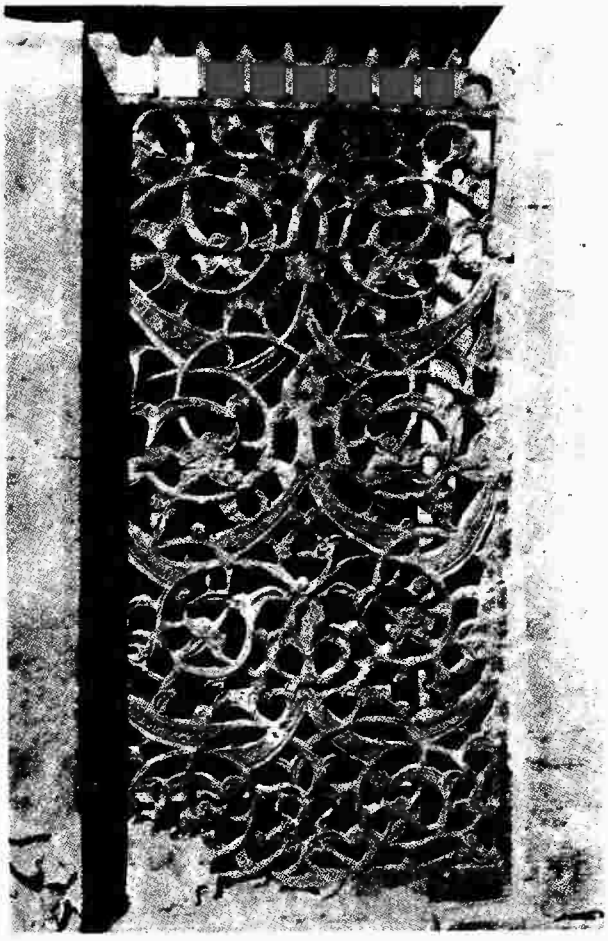

(شكل ٢٢٤)
لوح من الحجر المنقوش بزخارف مفرغة ، جامع سنقروسلار ، القاهرة ، أوائل القرن ٨ هـ - ١٤ م ، العصر المملوكى .

(شكل ٢٢٥)
محراب جامع قنصوه الغورى ، القاهرة ، القرن ١٠ هـ - ١٦ م ، العصر المملوكى .

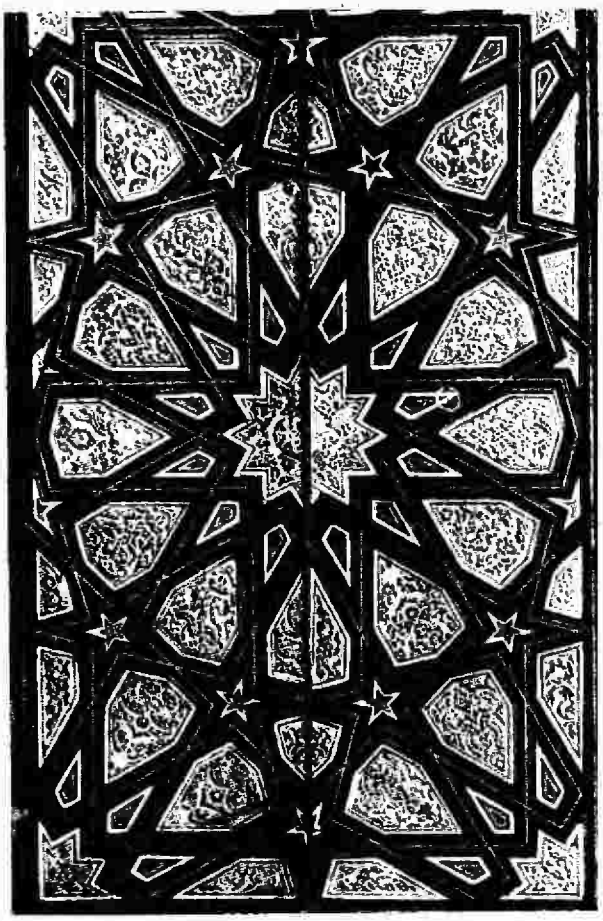

(شكل ٢٢٦)

باب من الخشب مطعم بالعاج ، القاهرة ، أواخر القرن ٧ هـ — ١٣ م ، العصر المملوكى ، حالياً بمتحف المتروبوليتان . (صورة مهداة من المتحف) .

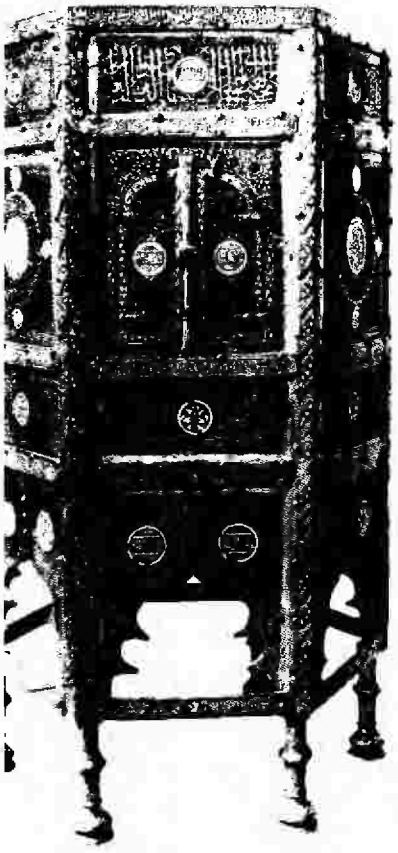

(شكل ٢٢٧)

منضدة (كرسى) من المعدن مطعم بالفضة . صنع بأمر السلطان قلاوون القاهرة العصر المملوكى ، حالياً المتحف الإسلامى بالقاهرة .

زخرفة جدران مشيد اتهم للحصول على تأثير جميل . ويظهر ذلك فى واجهات مسجد قايتباى (ش٢١٩) . وكان هذا الأسلوب متبعا فى القصر الأبلق بدمشق[١]

الفنون الصغيرة :

الحفر على الخشب :

ظهر تطور كبير فى الزخارف المحفورة على الخشب فى مصر فى عصر المماليك ، حيث أغفل الفنان المصرى نهائياً استخدام الوحدات والعناصر الحية التى اشتهر بها العصر الفاطمى ، وأقبل على الأشكال الهندسية النجمية التى برع فى تكوين زخارف منها . وتتكون هذه الأشكال النجمية من حشوات صغيرة تتألف من أشكال سداسية الأضلاع مزخرفة بالفروع النباتية المورقة الدقيقة ، ويتوسط هذه الحشوات أشكال نجمية مزخرفة بنقوش نباتية دقيقة أطلق عليها اسم « الأطباق النجمية» . ولقد انتشر استخدام هذه الزخارف النجمية فى الأبواب (ش٢٢٦) والمنابر الخشبية المملوكية التى صنعت فى القرون الثالث والرابع والخامس عشر الميلادى . توصل الفنان فى العصر المملوكى إلى أسلوب زخرفى جديد فى زخرفة الأسطح الخشبية ، وذلك بتطعيم هذه الأخشاب بأشرطة رقيقة من نوع آخر من أخشاب ذى لون مخالف . كما طعمت القطع الخشبية بطبقة دقيقة من الفسيفساء تتألف عادة من قطع العظم أو العاج أو الأبنوس أو الأصداف . ومن أجمل المنابر الملوكية منبر جامع المردانى[٢] الذى يتميز بزخارف محفورة على مستويين . ويقل مستوى زخرفة الأخشاب فى القرن الخامس عشر الميلادى عما أنتج قبل ذلك .

ولو أن صناعة الخشب الخرط ظهرت منها نماذج فى مصر منذ العصر الفاطمى والطولونى ، إلا أن أجمل ما عثر عليه يرجع إلى العصر المملوكى فى أوائل القرن الخامس عشر . ويرجع قيام هذه الصناعة فى مصر إلى الأقباط الذين كانوا يجيدونها . ولقد استخدم خشب الخرط فى عمل المشربيات الخشبية التى استخدمت

(١) حسن عبدالوهاب ما قبله ص ٩٦ .

(٢) تظهر الصلة بين العصر المملوكى فى مصر وسوريا فى زخارف هذا المنبر الذى يطابق مثيله المعاصر فى الجامع الكبير بحلب انظر حسن عبدالوهاب ما قبله ٩٩ .

فى تغطية نوافذ المنازل وفى الحواجز الخشبية التى تفصل بين أجزاء المبنى . وتعتمد هذه الصناعة على خراطة تكعيبات أو كرات خشبية ذات زوايا وفواصل يرتبط بعضها ببعض ، وأحياناً تزخرف هذه المشربيات بقطع أخرى من الخشب على شكل منبر أو مشكاة أو عناصر كتابية . وأحسن نماذج لهذه الصناعة ترجع إلى العصرين الثامن والتاسع عشر الميلادى .

المعادن :

ازدهرت صناعة المعادن بأنواعها فى العصر المملوكى . ولقد استخدمت شرائط النحاس فى تغطية أبواب المساجد والقصور الخشبية بعد نقشها بزخارف هندسية جميلة . ومما ساعد على ازدهار صناعة المعادن ، اهتمام المماليك بصناعة أدوات توضع فى المساجد مثل الشمعدانات والمناضد (الكرسى)(ش ٢٢٧) التى كانت تستخدم فى حملها ، والصناديق التى كانت تحفظ فيها المصاحف والمحابر والثريات والأسلحة . ولقد استخدم البرونز فى صناعة هذه الأدوات المعدنية ، وكانت تزخرف بطريقتى النقش والتكفيت ، وتقدمت صناعة التكفيت تقدما كبيراً فى ذلك العصر . ولقد انتقل فن التكفيت من الموصل إلى مصر وسوريا كما علمنا فى العصر الأيوبى ، وذلك عن طريق الصناع الذين هجروا الموصل فى القرن الثالث عشر الميلادى بتشجيع من الحكام الأيوبيين .

ويظهر فى بعض الأوانى المعدنية التى صنعت فى أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل القرن الرابع عشر الميلادى لتستخدم فى المنازل ، استمرار الزخارف ذات العناصر الآدمية التى تميز بها العصر السلجوقى والتى ظهرت فى أوانى العصر الأيوبى (ش ١٥١) . ويتضح ذلك من طشت مملوكى محفوظ بمتحف اللوفر ينسب إلى مصر أو سوريا ، مزخرف بموضوعات آدمية كبيرة الحجم تصور مناظر من بلاط السلطان (ش ٢٢٨) . ويوجد على الإناء إمضاء مزخرفة « محمد بن زين الدين » . ويتكرر اسم هذا الفنان على طشت مشهور[1] محفوظ باللوفر مزخرف بوحدات آدمية .

ويلاحظ فى هذا الطشت المملوكى العناية الفائقة بنقش التفاصيل الدقيقة لرسوم

---

(١) ترجع شهرة هذا الطشت إلى أنه عرف باسم حوض تعميد القديس لويس .

(شكل ٢٢٨)

طشت من المعدن صنع « محمد بن زين » مصر أو سوريا ، أوائل القرن ٨ هـ – ١٤ م العصر المملوكى ، حالياً بمتحف اللوفر بباريس .

(شكل ٢٢٩)

صينية من المعدن ، منقوشة ومكفته بالفضة ، القاهرة القرن ٨ هـ – ١٤ م العصر المملوكى حالياً متحف المتروبوليتان .

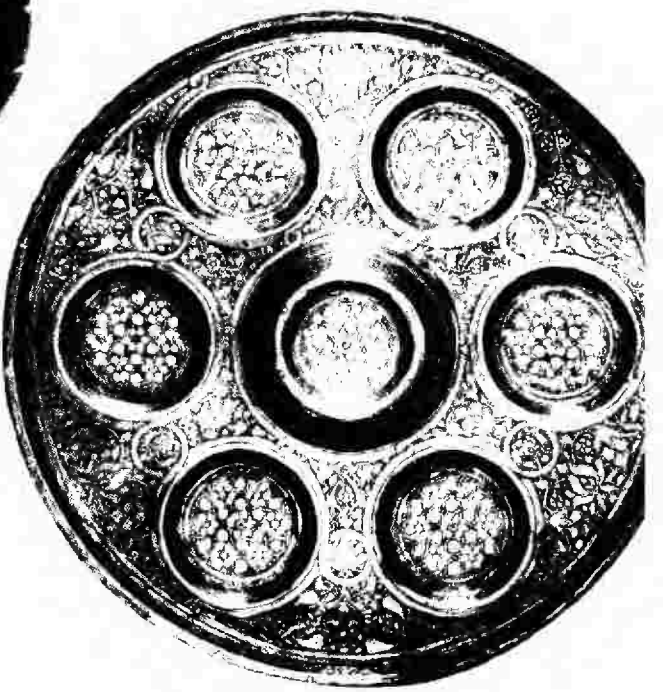

(شكل ٢٣٠)

إبريق من المعدن مكفت بالفضة وبه نقش باسم الأمير « طبطق » . القاهرة العصر المملوكى ، حالياً المتحف الإسلامى بالقاهرة . صورة من المتحف

(شكل ٢٣١)

جزء من إناء خزفى يغطى سطحه زخارف نباتية ، ويتوسط الإناء حيوان صناعة دمشق القرن ٨ هـ – ١٤ م العصر المملوكى حالياً متحف اللوفر .

(شكل ٢٣٢)

جزء من طبق خزفى يغطى سطحه زخارف نباتية ، ويتوسط الطبق غزال القاهرة العصر المملوكى القرن ٨ هـ ١٤ م ، حالياً المتحف الإسلامى بالقاهرة . صورة من المتحف .

الأشكال الآدمية والحيوانية . ولقد استمر ظهور الوحدات الآدمية فى التحف المعدنية المملوكية حتى منتصف القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى . وتظهر هذه العناصر موضوعة فى جامات ، كما تظهر بالأوانى المملوكية أيضاً أشرطة الكتابة النسخية .

اختفت العناصر الحية من زخارف الأوانى المعدنية التى صنعت فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ، وبدأ ظهور زخارف متأثرة بالوجود المغولى ، كنبات عود الصليب ووحدات البط الطائرة التى ظهرت فى فنون المنطقة . ويظهر ذلك فى صينية مزخرفة بزخارف نباتية (ش٢٢٩) منقوشة ومكفتة بالفضة . وانتشر كذلك استخدام زخارف الشارات الرسمية والرنوك المملوكية التى كانت توضع فى جامات[١] .

ولقد كانت الرنوك معروفة فى مصر منذ العصر الأيوبى ، وتشمل ألقاب وأسماء السلاطين أو رجال الحاشية ، ومن أمثلة ذلك إبريق باسم الأمير طبطق (ش٢٣٠) مزين بزخارف هندسية متشابكة وتوزيعات نباتية ورنوك . ويظهر أسلوب التكفيت أيضاً فى زخارف بعض الأسلحة والخوذات البرونزية التى صنعت للحكام والمماليك . ولكن هذه الصناعة ابتدأت فى الاضمحلال فى القرن الخامس عشر الميلادى[٢] حيث اكتفى الصناع بزخرفة الأوانى المعدنية بنقوش منحوتة على السطح .

الخزف :

ازدهرت صناعة الخزف فى مصر وسوريا فى العصر المملوكى ، وبلغت الزخارف النباتية الطبيعية درجة كبيرة من الدقة والإتقان . على أننا نلاحظ أن إنتاج الأوانى الخزفية ذات البريق المعدنى قد توقف إنتاجه فى مصر ، فى حين استمر فى الظهور فى سوريا ، حيث عثر بها على أوان ترجع إلى القرن السادس عشر الميلادى مزخرفة بزخارف البريق المعدنى المتعدد الألوان .

ولقد اشتهرت دمشق منذ منتصف القرن الثامن الهجرى أو الرابع عشر الميلادى

---

(١) كانت زخارف هذه الرنوك ترمز لوظيفة الأمراء من رجال البلاط (كالساقى وحامل السيف وخازن الثياب . . . إلخ) . انظر Frisse D'avennes ما قبله ص ٦٥

(٢) تكلم المقريزى عن اضمحلال صناعة النحاس المكفت فى مصر فى كتاب الخطط والآثار جزء ٢ ص ٢٣٠ .

بصناعة الأوانى الخزفية التى تشبه الخزف الصينى ، وتزين هذه الأوانى زخارف نباتية مرسومة باللونين الأسود والأزرق تحت الطلاء الزجاجى ، وغالبًا ما يتوسط هذه الزخارف رسم لوحدة حيوانية أو طائر (ش ٢٣١) . ولقد شاعت صناعة هذا النوع من الخزف فى مصر أيضًا فى العصر المملوكى ويتشابه مع خزف الشام لدرجة يصعب معها التمييز بين ما صنع فى مصر وما استورد إليها من بلاد الشام . ولقد تمكن الخزافون المصريون من إدخال بعض التحسينات على أسلوب الصناعة حتى يتجنبوا اختلاط اللون الأزرق بالطلاء الزجاجى (ش ٢٣٢) .

ولقد عثر فى مصر وسوريا على أوان تتشابه مع الأوانى الخزفية المنسوبة إلى « سلطان آباد »[1] بإيران ، على أن النماذج التى صنعت بمصر كانت زخارفها أكثر شبهاً بزخارف الأوانى الخزفية الإيرانية التى صنعت فى عصر المغول عن زخارف الأوانى السورية ؛ مثال ذلك مشكاة من الخزف ترجع إلى القرن الخامس عشر الميلادى (ش ٢٣٣) تزينها زخارف خطية كبيرة باللون الأبيض على أرضية سوداء . ولو أن الزخرفة الكتابية مملوكية الأسلوب إلا أن الأرضية السوداء بها خطوط محززة تتشابه مع ما وجد فى بعض الأوانى الخزفية التى اشتهرت بها مدينة كوبجى فى العصر التيمورى (ش ١٨٥) . ويظهر أحيانًا على هذا النوع من الخزف ذى الزخارف الزرقاء رنوك أصحابها . مثال ذلك زهرية من دمشق (ش ٢٣٤) يظهر عليها شارة أمراء فلورنسا .

ومن الخزف المملوكى الذى اقتصر إنتاجه على مصر ، نوع من الأوانى خشن مصنوع من طفل بنى أحمر ومغطى ببطانة بيضاء عليها طلاء زجاجى بنى اللون أو ضارب إلى الصفرة أو الخضرة ، وتظهر الزخارف محززة فى البطانة البيضاء ، كما يظهر من بين التحزيزات لون جدار الآنية البنى الأحمر . وقد عرف هذا النوع باسم الفخار المطلى بالمينا . ويرجح أن هذا النوع من الخزف كان للاستعمال اليومى فى منازل الأمراء وكبار رجال الدولة . مثال ذلك آنية (ش ٢٣٥) منقوش عليها اسم مملوك من مماليك السلطان « مالك ناصر محمود » المتوفى عام ٧٤١ هـ ـ (١٣٤١م) ؛ وغالبًا ما نجد توقيع الصانع على هذا النوع من الخزف ، وتتكون

---

(١) إتينجهاوزن « خزف بلاد الشرق الأدنى منذ العصور الوسطى » فى نشرة متحف فريير بواشنطن ١٩٦٠ (ش ٤٠) .

(شكل ٢٣٣)

مشكاة من الخزف . مزخرفة بخطوط محززة على الأرضية السوداء كما تظهر بها زخارف كتابية القاهرة القرن ٨ هـ – ١٤ م العصر المملوكى . حالياً متحف المتروبوليتان « مهداة من المتحف » . مجموعة إدوارد مور

(شكل ٢٣٥)

إناء من الفخار البنى المطلى ، القاهرة القرن ٨ هـ – ١٤ م العصر المملوكى المتحف الإسلامى بالقاهرة .

(شكل ٢٣٤)

إناء من الخزف . ذى الزخارف الزرقاء يتوسطه رنك أمير فلورتسا . دمشق القرن ٨ هـ – ١٤ م العصر المملوكى حالياً متحف الفنون الزخرفية باريس

(شكل ٢٣٦)
قنينة من الزجاج المموه بالمينا من صناعة حلب ، القرن ٧ هـ - ١٣ م ، العصر المملوكى ، حالياً بمتحف الدولة - برلين .

(شكل ٢٣٧)
قنينة زجاجية صنعت لسلطان اليمن ، دمشق ، القرن ٨ هـ - ١٤ م ، العصر المملوكى . حالياً متحف فرير واشنطن .

(شكل ٢٣٨)
مشكاة من الزجاج المموه بالمينا ، القاهرة ، القرن ٨ هـ - ١٤ م العصر المملوكى ، حالياً المتحف الإسلامى بالقاهرة .

زخارفه من عناصر كتابية ونباتية . ويظهر أحيانًا بين هذه العناصر رنوك أصحاب هذه الأوانى التى تمثل بشارات مختلفة ، وتشابه هذه الرنوك مثيلاتها التى وجدت على الأوانى المعدنية . ولقد استمر إنتاج هذا النوع من الأوانى حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

الزجاج :

كانت دمشق منذ عهد الظاهر « بيبرس » من أهم مراكز إنتاج الأوانى الزجاجية المماوكية فى سوريا ، بالإضافة إلى مدينة حلب التى ذاعت شهرتها فى إنتاج فاخر المصنوعات الزجاجية التى كانت تصدر إلى الأقطار العربية[1] . ويرجع الفضل فى إنتاج الأوانى الزجاجية المزججة بالمينا الجميلة التى صدرت إلى البلاد الأوربية ومصر إلى الصناع السوريين . وتتكون زخارف هذه الأوانى من عناصر نباتية وكتابية كما تضمنت أحيانًا موضوعات بها رسوم آدمية وحيوانية ، وتمتاز هذه الزخارف بذوق رفيع ، ويتضح ذلك فى إناء يخص أحد السلاطين ينسب صناعته إلى مدينة حلب فى القرن الثالث عشر الميلادى (ش ٢٣٦) . وبالرغم من كثرة الأوانى التى ثبت نسبة صناعتها إلى سوريا ، إلا أنه يمكن نسبة بعض ما عثر عليه من الأوانى الزجاجية فى مصر إلى صناعة القاهرة .

ومن الأوانى الجميلة التى تظهر فيها أشرطة الزخارف الكتابية مع العناصر النباتية ، قنينة شراب صنعت فى دمشق لأحد سلاطين اليمن ويدعى « على » (ش ٢٣٧) ، وتظهر شارة السلطان واسمه مع الزخارف .

ويتضح من زخارف الأوانى الزجاجية التى صنعت فى أوائل العصر المملوكى استمرار ظهور بعض الأساليب الأيوبية إلى جانب بعض العناصر المغولية التى عاصرت العصر المملوكى .

ومن أجمل ما أنتج بكثرة فى العصر المملوكى قناديل زجاجية كان الحكام المماليك والأمراء يأمرون بصنعها لتوضع فى المساجد . وكانت هذه القناديل

---

(١) ذكر القزوينى (١٢٠٣ - ١٢٨٣) بأن مدينة حلب كانت مركزاً لتصدير الزجاج إلى الخارج .

من الزجاج المموه بالمينا والذهب ولها شكل مميز وتعرف باسم المشكاوات . وتحمل هذه الأوانى أسماء أصحابها وشاراتهم ونقوشاً كتابية دعائية للسلطان الحاكم بالإضافة إلى الزخارف النباتية الطبيعية التى حلت تدريجياً محل الزخارف المجردة . ومن أجمل الأمثلة على ذلك مشكاة مزينة بزخارف كتابية بحروف كبيرة بالإضافة إلى زخارف جامات رنوك الحكام والزخارف النباتية الطبيعية والبراعم الصينية (ش ٢٣٨) . وهنا يظهر انتشار التأثير الصينى الذى نتج عن ظهور العنصر المغولى كدولة حاكمة معاصرة فى الجزء الشرقى الإسلامى ، ويلاحظ أن الزخارف النباتية فى الأوانى التى ترجع صناعتها إلى القرن الخامس عشر الميلادى أصبحت هى الغالبية ، وصارت تغطى جسم الإناء الزجاجى كله إلى درجة أن السطح يكاد يختفى .

النسيج والسجاد :

قل فى العصر التركى إنتاج المنسوجات الكتانية الموشاة بالحرير التى اشتهر بها العصر الفاطمى وحلت محلها المنسوجات الحريرية التى امتازت بجودتها وروعة زخارفها المبتكرة . وتحولت مراكز صناعة المنسوجات الكتانية فى مصر إلى مراكز لإنتاج المنسوجات الحريرية ، كما انتقلت مراكز الإنتاج من مدينتى دمياط وتنيس إلى الإسكندرية ودمنهور . ويظهر فى زخارف المنسوجات المملوكية وحدات حيوانية وطيور إلى جانب العناصر النباتية الصينية ، مثل رسوم أزهار اللوتس ونبات عود الصليب وزخارف نباتية رسمت على هيئة سحب ، وتتضمن الزخارف أحياناً رسوماً لبعض الحيوانات الخرافية التى عرفت فى الفن الصينى . وكانت بعض هذه القطع تحمل أسماء سلاطين المماليك ، ومن أجمل هذه الأمثلة قطعة نسيج من الحرير الأسود عليها اسم « الناصر » منسوجة بخيوط رقيقة من الذهب ، وتتكون زخارف هذه القطعة من أزواج من الببغاوات موضوعة فى منطقة مستديرة فى وضع متدابر ، كما تظهر وحدات التنين الصينى موزعة بين هذه الجامات (ش ٢٣٩). وتظهر هذه العناصر الأجنبية فى زخارف الأقمشة الحريرية « المقصب » الذى اختصت به دمشق ، والحرير الموشى « الديباج أو الكمخة » الذى يصنع فى مصر . ويرجع انتشار عناصر الزخرفة الصينية فى المنسوجات الحريرية المقصب أو الموشى إلى نشاط العلاقات التجارية فى العصر المملوكى بين مصر وسوريا وبين بلاد

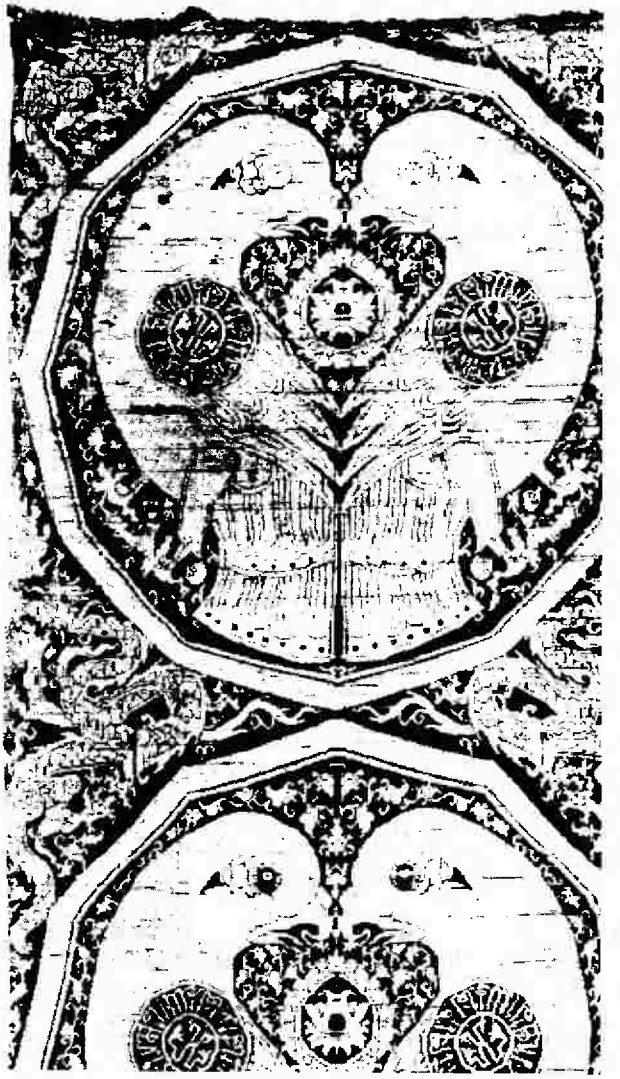

(شكل ٢٣٩)

قطعة من الديباج عليها اسم الناصر بالخيوط الذهبية . مزخرفة بدوائر مستديرة يتوسطها ببغاوات متدابرة القرن ٨ هـ – ١٤ م العصر المملوكى

(شكل ٢٤٠)

قطعة نسيج مطرزة ، القرن ٨ هـ – ١٤ م العصر المملوكى ، حالياً متحف فيكتوريا وألبرت .

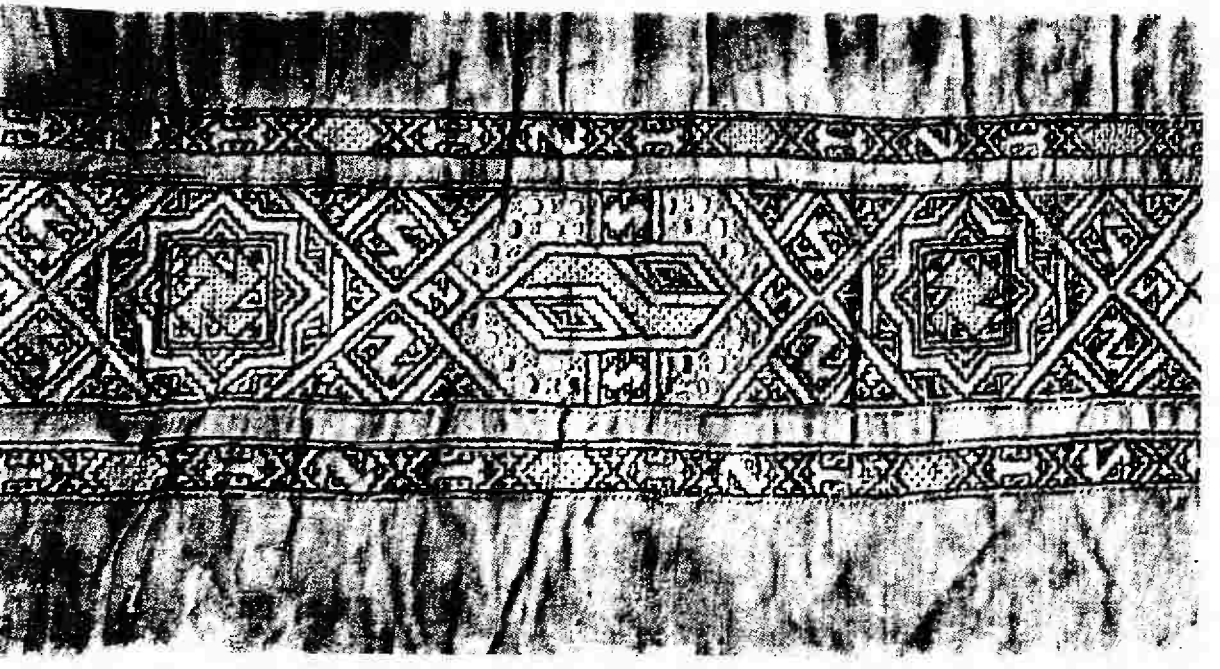

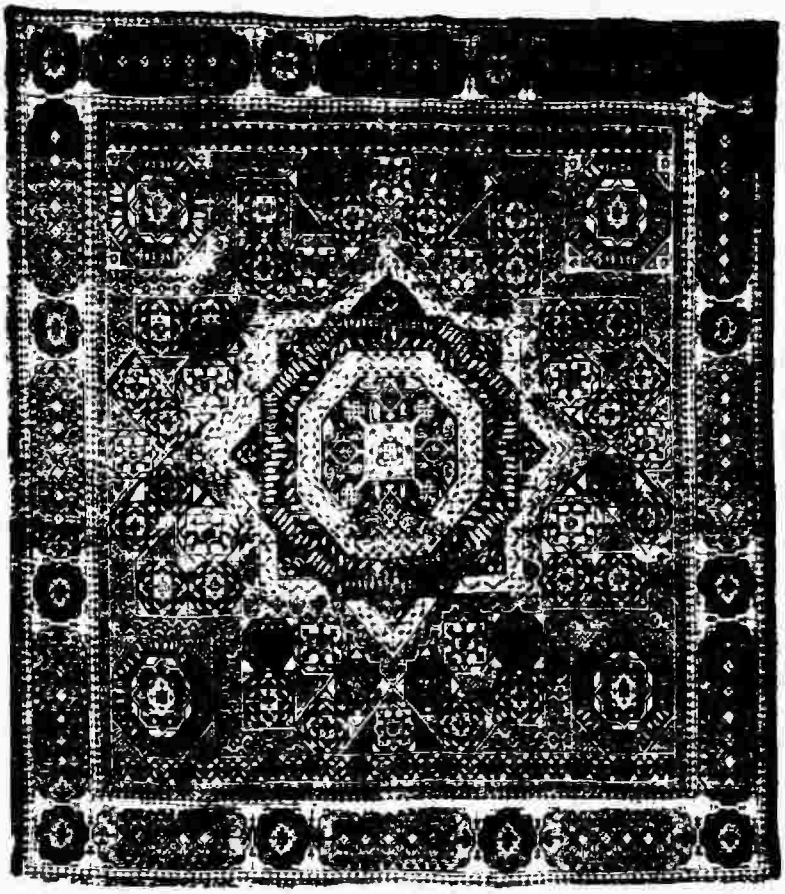

(شكل ٢٤١)
سجاد من صناعة مصر فى أوائل القرن ١٠ هـ - ١٦ م ، ويلاحظ تقسيم الأرضية إلى مناطق هندسية ، حالياً بمتحف المتروبوليتان ، نيويورك .

(شكل ٢٤٢)
الصورة الأمامية لمخطوط مقامات الحريرى ، القاهرة ٧٣٤هـ - ١٣٣٤م يصور الملك جالساً بوضع المواجهة وفوق رأسه مظلة وذلك من علامات السلطة عند الأتراك ، حالياً بالمكتبة الأهلية بفيينا .

الشرق الأقصى فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الميلادى ، وتبدو هذه العناصر الأجنبية أكثر وضوحًا فى المنسوجات الحريرية التى صنعت فى مصر وترجع إلى القرنين الرابع والخامس عشر الميلادى . وتتشابه هذه العناصر الصينية مع زخارف قطع المنسوجات المعاصرة التى صنعت فى إيران فى العصر المغولى . كذلك عثر أيضًا على بعض قطع من المنسوجات الحريرية المملوكية يظهر بها زخارف من الأشرطة بعيدة عن التأثر بنفوذ الفن الصينى ، حيث اقتصرت زخارفها على أشرطة بها ألقاب السلطان وأشرطة بها رسوم لحيوانات أو وحدات نباتية . وتتشابه هذه القطع فى زخارفها مع منسوجات العصر الفاطمى .

ويظهر فى العصر المملوكى أسلوب مبتكر فى تطريز زخارف المنسوجات الحريرية ، وذلك عن طريق عمل غرز جميلة متتابعة متدرجة (ش ٢٤٠) ولقد انتقل هذا الابتكار إلى أوربا وعرف باسم غرزة (هولباين)[1] . كما تستمر طريقة زخرفة المنسوجات بالقوالب الخشبية التى كانت متبعة فى العصر الفاطمى ، وتتنوع عناصر الزخرفة فى هذه الأقمشة المطبوعة فتظهر وحدات آدمية وحيوانية .

ينسب العلماء والباحثين صناعة أكثر السجاجيد المعقودة ذات الزخارف الهندسية الموجودة فى المتاحف الأوربية إلى مصر ، وذلك لتشابه زخارف هذه المجموعة التى تتكون من مناطق هندسية متراصة مزينة بتفريعات زخارف نباتية مع الزخارف الهندسية المملوكية . وأحسن إنتاج لهذه السجاجيد يرجع إلى القرن السادس عشر الميلادى ، ويتميز بزخارف هندسية باللون الأزرق على الأرضية الحمراء (ش ٢٤١) ولقد عرفت هذه المجموعة خطأ باسم « أبسطة دمشق » .

التصوير :

ازدهر فن التصوير الإسلامى فى العصر المملوكى ويتضح ذلك فى النماذج التى أمدنا بها ذلك العصر . وتمتاز هذه التصاوير بمحافظتها على التقاليد والأساليب المحلية التى تميزت بها المدرسة العربية فى العراق وسوريا منذ أواخر القرن الثانى عشر

---

(١) اسم مصور مشهور من مصورى أوربا . ألمانى الجنسية واشتهر فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى .

الميلادى ، مع بعض الأساليب الإيرانية ، وقد اجتمع مع هذا الخليط بعض التأثيرات المغولية التى ظهرت فى العراق بعد غزوها بالمغول ، ونتج عن هذا المزيج أسلوب جديد تميز به العصر المملوكى . وأبدع هذه الأمثلة وجد فى الصور التى تزين نسخة من مخطوطة مقامات الحريرى صورت فى القاهرة فى عام ٧٣٤ هـ — ١٣٣٤ م ومحفوظة حالياً بمكتبة فيينا الأهلية ، حيث يتضح فى هذه الصور التأثر بالأساليب السلجوقية والإيرانية .

ويظهر ذلك فى الصورة التى تتصدر المخطوطة التى تصور الحاكم جالساً فى وضع المواجهة وفوق رأسه مظلة يحملها ملكان (ش ٢٤٢) ، ونلاحظ فى تكوين هذه الصورة التأثر بنماذج وجدت قبل ذلك فى مدرسة الموصل مثل كتاب الأغانى (ش ١٤٣) ، وكتاب الترياق الذى يصور مناظر من البلاط الملكى [لوحة ملونة رقم ٣] . وتبدو الأشخاص المرسومة فى المخطوطة المملوكية جامدة خالية من الحركة والحياة . كما يظهر على سحنتهم الشبه المغولى أو التركى البعيد عن الشبه العربى ، فتبدو وجوههم مستديرة بأعين لوزية ضيقة مائلة بالرغم من أن الحاكم هنا يرتدى العمامة العربية . ونلاحظ هنا أن الصور أصبحت تحدد بإطار ، وهذا من أهم خصائص التصوير فى هذه المرحلة .

ونلاحظ فى بعض صور نسخة أخرى من المخطوطة السابقة مؤرخة عام ٧٣٨هـ — ١٣٣٧م وموجودة حالياً فى مكتبة بودليان بأكسفورد ، تأثير بعض عناصر الفن المغولى على مدرسة التصوير العربية المملوكية ، ويتضح ذلك فى المقامة السابعة والعشرين التى يساعد فيها أبا زيد السروجى ، الحارث على استعادة جمله المسروق (ش ٢٤٣) . فتظهر بخلفية الصورة تفريعات نباتية ذات أزهار كبيرة مستمدة من الفن الصينى . وإذا قورنت هذه المخطوطة بالمخطوطات السابقة التى عالجت نفس الموضوعات التى تحتوى على صور من الحياة اليومية ، نلاحظ فى رسم الأشخاص البعد عن الواقعية التى وجدت فى المخطوطة السابقة . كما يلاحظ فى صور هذه المخطوطة تأثير المدرسة العربية ، وذلك فى الهالة التى تحيط برءوس الأشخاص ، الذى بالغ المصور فى زخرفة ثيابهم ، وهذا يعتبر من أهم خصائص التصوير المملوكى . ومن مميزات التصوير المملوكى أيضاً ظهور الخلفية الذهبية التى نجح الفنان فى استخدامها لتربط بين درجة

(شكل ٢٤٣)

صفحة من مخطوط مقامات الحريرى تصور أبو زيد يساعد الحارث على استعادة جملة المسروق غالباً مصر فى ٧٣٨ هـ — ١٣٣٧ م مكتبة بودليان أكسفورد .

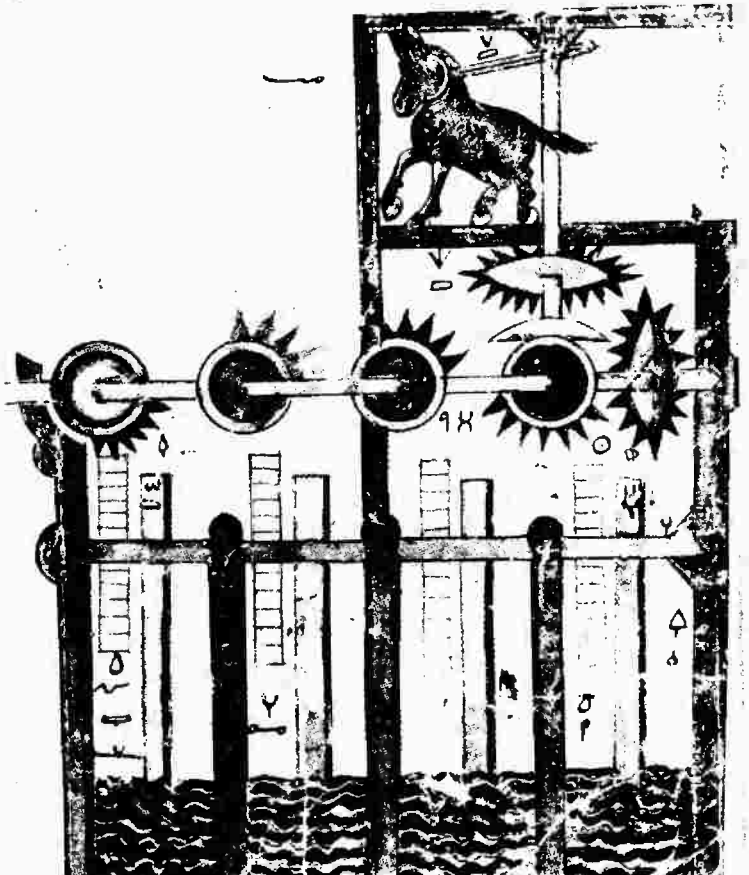

(شكل ٢٤٤)

صفحة من مخطوط الجذرى « معرفة الحيل الميكانيكية » ، غالباً سوريا ٧١٥ هـ — ١٣١٤ م ؛ حالياً متحف فرير بواشنطن .

(شكل ٢٤٥)

صفحة من مخطوط كليلة ودمنة ، نرى بها الأرنب وملك الأفيلة أمام بئر القمر ، غالباً سوريا ٧٥٥ هـ – ١٣٥٣ م مكتبة بودليان باريس .

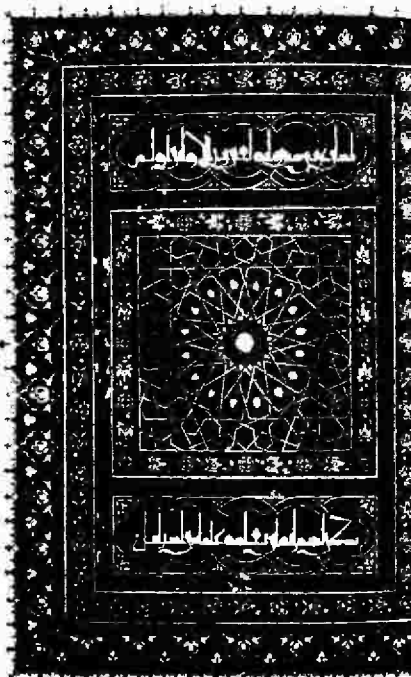

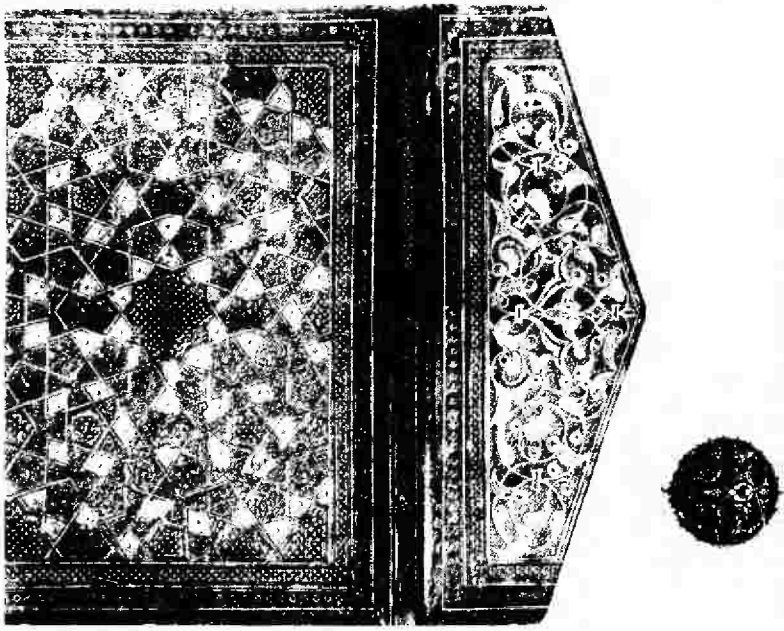

(شكل ٢٤٦)

صفحة من مصحف أرغون شاه ، ٧٧٠ هـ – ١٣٦٨ م ، حالياً بدار الكتب بالقاهرة .

(شكل ٢٤٧)

جلدة كتاب بها زخارف بارزة ومذهبة من صناعة مصر أواخر القرن ٧ هـ – ١٣م ، حاليا متحف الدولة ، برلين

الألوان المختلفة وتضفى على هذه الصور تأثيراً زخرفيًّا فخمًا .

ومن المخطوطات التى تنسب إلى العصر المملوكى ، نسختان من كتاب « معرفة الحيل الميكانيكية » للجزرى صورت إحداهما (ش ٢٤٤) غالبا فى سوريا عام (٧١٥ هـ — ١٣١٥ م) ، والأخرى كتبت لأحد أتباع السلطان المملوكى صلاح الدين صالح فى عام (٧٥٥ هـ — ١٣٥٣م) .

وبينما نجد مناظر الأشخاص فى مخطوطات القرن الرابع عشر الميلادى فى العصر المملوكى تتصف بالجمود وتختلف عن مثيلاتها المصورة فى القرن الثالث عشر الميلادى ، نجد أن الأمر يختلف فى رسم الحيوانات . ويتضح ذلك فى مخطوطة « كليلة ودمنة » الموجودة فى مكتبة « بودليان » بأكسفورد (٧٥٥ هـ — ١٣٣٤م) ، وفى النسخة الموجودة فى المكتبة الأهلية بباريس ، حيث تميزت هذه الرسوم بأسلوب واقعى متقن (ش ٢٤٥) . ويرجح نسبة هذه الصور إلى سوريا فى العصر المملوكى .

التذهيب والتجليد :

استخدم الفنان فى ذلك العصر أسلوبًا جديداً فى زخرفة صفحات المصحف الأولى ، وذلك برسم زخارف منمقة من التوريقات والتفريعات النباتية الملونة والمذهبة . وكانت هذه المصاحف تكتب بتكليف من السلطان أو كبار رجال الدولة ، ولذلك وجد بأغلبيتها أسماء أصحابها وتاريخ كتابتها . ويظهر فى زخارف هذه المصاحف الطابع المميز للزخرفة المملوكية الهندسية وهى الأشكال النجمية ، وتتكون الزخارف أحيانًا من العناصر النباتية والمضلعات الهندسية والأطباق النجمية مع أشرطة الكتابة الكوفية على أرضية زرقاء . ومثال ذلك صفحة من مصحف « أرغون شاه » (٧٧٠ — ٧٩٠هـ) (١٣٦٨م — ١٣٨٨م) ، الموجود بدار الكتب بالقاهرة . (ش ٢٤٦) .

تميز العصر المملوكى فى مصر أيضاً بإجادة صناعة جلود الكتب . وتزخرف جلدة الكتاب غالباً بزخارف هندسية ونباتية مضغوطة . ومن أحسن الأمثلة على ذلك جلدة كتاب تتوسطها جامة بها زخارف هندسية متشابكة ، ويزين الأركان أرباع هذه الجامة (ش ٢٤٧) .

ويتضح من دراسة الفن المملوكى ، أنه ظهر فى سوريا ومصر طراز من العمارة والزخارف المعمارية جمع بين كثير من العناصر الموجودة فى الفنون الفاطمية والسلجوقية والأيوبية . ويتميز الهيكل الأساسى للعمارة بكبر حجمه إذا ما قورن بمبانى العصر الفاطمى . كما نلاحظ فى مساجد ذلك العصر أن هناك تناقضًا بين شكل المبنى الخارجى الجامد ، وبين الجزء الداخلى الذى كان عادة يبالغ فى زخرفته بأنواع مختلفة من الزخارف المعمارية. ولقد نفذت هذه الزخارف بطريقة الحص المنقوش ، أو بحفر المسطحات الحجرية ، أو بالتغشية ببلاطات الرخام والحجارة المتعددة الألوان .

وأحسن ماتميز به العصر المملوكى ، هو الصناعات المعدنية والزجاجية . ، فكانت هذه الصناعات الزجاجية فخر العصر المملوكى . أما مدرسة التصوير المملوكية فلم تتميز بمميزات خاصة بها ، ونجد أنها تجمع بين الكثير من الأساليب الفنية الإيرانية والمغولية ، مع أسلوب المدرسة العربية .

مسجد محمد على بالقلعة

بدأ محمد على فى تشييد مسجده فى عام ١٢٤٤ هـ - ١٨٢٨ م بعد أن انتهى من تشييد مبانيه الخاصه فى القلعة . وأسند هذا العمل إلى المهندس التركى يوسف بن شفاف . الذى اعتمد فى تصميمه لهذا المسجد على تصميم مسجد السلطان أحمد بمدينة اسطنبول ويتكون تصميم المسجد من مستطيل الشكل ينقسم إلى قسمين الشرقى ويوجد به رواق الصلاة والغربى ويشغله صحن المسجد .. ونلاحظ أن القسم الشرقى مربع الشكل مغطى بقبة كبيرة تعتمد على أربعة عقود ترتكز بأطرافها على أربع دعائم مربعة ويحيط بالقبة أربع أنصاف قباب بالإضافة إلى نصف قبه تغطى موقع المحراب . ولقد زخرفت القبة بزخارف خطية . ويتميز هذا المسجد بمئذنتين دقيقتين يشبه شكلها القلم الرصاص .